أمـن الإنسـان العربـي: هويـة الصـراع وصـراع الهويـات

عامر خياط(*)

الأمين العام للمنظمة العربية لمكافحة الفساد.

على هامش ندوة «التنمية الاجتماعية: من أجل رؤية جديدة للأمن الإنساني العربي»(١)، التي انعقدت في الدوحة في ١٢ ـ ١٣ تشرين الأول/ أكتو بر ٢٠٠٩، اعتبرت د. نيفين مسعد، في مداخلة متميزة، أن أبرز ما يؤثر سلباً في أمن الإنسان العربي، في الحقبة الراهنة، هو الصراع المبني على التمايز والانتماء إلى الهويات الطائفية والمذهبية والإثنية والتعصب القبلي السائد في الوطن العربي. علماً بأن **تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٩**(٢)، كان قد أسهب في تحديد المعوقات التي تهدد هذا الأمن، إنما لم يتطرق إلى البعد القومي وأثره في حماية أمن الإنسان العربي.

ـ ١ ـ

وفي العودة إلى التاريخ القريب لتطور المجتمعات العربية، ابتداءً بقيام الدولة القطرية ونيل الاستقلال، نجد أن دينامية الحراك الاجتماعي في مرحلة تأسيس الدولة كان يدور حول وسائل تعزيز الاستقلال، والانطلاق في مسيرة التنمية. على الصعيد السياسي، كان الصراع يدور حول المفاهيم والنظم السياسية التي كانت تسعى الأحزاب إلى تطبيقها كبرامج عمل. الصراع إذن كان يدور حول كيفية تعزيز الاستقلال الوطني والتحرر، وما يرتبط بهما من مستهدفات تعمل من أجل إعادة إنتاج مكوّنات المجتمع لمرحلة ما بعد نيل الاستقلال. لم يكن

(*) البريد الإلكتروني: amer.khayatt@arabanticorruption.org.

(١) عُقدت الندوة بدعوة من «المؤسسة العربية للديمقراطية» و«اللجنة الوطنية لحقوق الإنسان» و«منظمة لا سلام بدون عدالة».

(٢) برنامج الأمم المتحدة الإنمائي والصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي، **تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام ٢٠٠٩: تحديات أمن الإنسان في البلدان العربية** (نيويورك: برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، المكتب الإقليمي للدول العربية، ٢٠٠٩).

جزء من هذا الخلاف صراعات طائفية أو مذهبية أو إثنية، بالرغم من وجود أحزاب لها أيديولوجيا دينية، إنما مشاركتها في العملية السياسية لم تكن مبنية على تأجيج الصراع الطائفي أو المذهبي.

في خضم ذلك برز التوجه القومي العربي في مختلف الأقطار العربية، كأداة حقيقية لمواجهة المخاطر المحيطة بعملية إنتاج الدولة القطرية. وأصبحت العروبة الهوية الجامعة لمكونات شعوب المنطقة، مع افتراض أن هذا التوجه العروبي كان في مجمل معطياته يحترم المكوّنات الخصوصية لشعوب المنطقة.

لاقت هذه الطروحات رفضاً شديداً، ومقاومة عنيفة من قبل الاستعمار. تمثل ذلك في صراعات دامية عصفت في المنطقة، استهدفت وجود هذه الكيانات السياسية الحديثة ومنطلقاتها الفكرية العربية، وليس أقلّها الصراع العربي ـ الإسرائيلي. كما عملت على تشجيع صراعات محلية لتقويض الأمن الإقليمي لهذه الكيانات كالصراع العراقي ـ الإيراني، والصراعات العربية ـ العربية. أدى ذلك، وما سبّبه من انتكاسات داخلية، الى تراجع العروبة كهوية قومية جامعة تسعى إلى حماية مصالحها وأمنها ضد ما يحاك، لها، في الخارج وما يواجهها من تدخلات أجنبية، تسعى الى تفتيت المنطقة والقضاء على أمنها المشترك.

ـ ٢ ـ

أدى هذا التشتيت والبعثرة الى اضطرار البعض الى اللجوء الى انتماءات عصبية وقبلية ودينية ومذهبية وعشائرية، أتاحت له أن يكون عضواً في مكوّن فئوي، يسعى من خلاله الى تعزيز موقعه أمام الآخر. وعلى هذا النحو نشأت في السنوات الأخيرة (وتحديداً منذ إضعاف ما كان من نظام أمني عربي قائم قبل سنة ١٩٦٧ وذلك إثر الاندحار العربي في الحرب مع إسرائيل في تلك السنة، وإنهائه كلياً بعد احتلال العراق للكويت عام ١٩٩٠، ومن ثم سقوط بغداد في نيسان/أبريل ٢٠٠٣ على يد القوات الغازية) هويات طائفية ومذهبية وإثنية وانتماءات قبلية وعشائرية، لتقتطع مكاسب فئوية لها. في العراق، على سبيل المثال، نجد في الأدبيات السياسية المتداولة، وبشكل خاص فيما يتعلق بتداول السلطة فيه، توصيفاً لتحالفات ومكوّنات سياسية مبنية على هوية كردية، وهوية أشورية، وهوية كلدانية، وهوية تركمانية، وما إلى ذلك. غير أن الغائب في هذا التوصيف هو الهوية العربية، حيث يتم الحديث عن مكوّنات هذه الهوية العربية بالهوية الشيعية أو الهوية السنية. ألا تستحق مثل هذه الظاهرة الى الكثير من الاستغراب عندما نعلم أن السنّة العرب والشيعة العرب في العراق يشكّلون أكثر من ثمانين بالمئة من مكوّنات الشعب العراقي. حقيقة الأمر، لا يمكن أن نعزي مثل هذه الظاهرة سوى الى تراجع العروبة كهوية جامعة وشاملة نتيجة تدخلات خارجية، تتمثل بالحصار على الشعب وبالاحتلال المقيت.

مثل هذا التراجع انسحب أيضاً على أبرز معطى تكويني في بناء الأمة ـ الدولة وهو مقاومة الاحتلال والتصدي له. لذا تتم الإشارة الى المقاومة الباسلة للشعب الفلسطيني في غزة على كونها مقاومة «إسلامية»، وبشكل أشمل على كونها «حماس»، لتأكيد هويتها «السنيّة». كذلك

«المقاومة الإسلامية» في جنوب لبنان التي خاضت أعنف المعارك ضد العدو الإسرائيلي، يشار إليها على كونها «حزب الله» تأكيداً لهويتها «الشيعية». وهلمّ جرا، فالقاعدة «سنيّة»، والدعوة «شيعية»، وما إلى ذلك. وغياب العروبة ملحوظ في ساحة الاصطفاف الطائفي والمذهبي.

ـ ٣ ـ

في الجانب الآخر، عندما تكون مفاعيل العروبة دينامية وحيّة في عملية التكوين الاجتماعي والسياسي في القطر، نجد بالمقابل ضمور الهويات الطائفية والقبلية والمذهبية لمصلحة الهوية الوطنية. مثال ذلك ما حصل في لبنان إثر الصراع الأهلي الطائفي سنة ١٩٥٨، الذي جاء إثر مداخل خارجية (حلف بغداد، التدخل الأمريكي العسكري). العروبة المحيطة بلبنان كانت في أوجها، متمثلة بوحدة مصر وسورية وصعود مستمر كانت له إفرازات مؤثرة في الصعيد الإقليمي والدولي. أمام هذا المشهد عقد المرحوم جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة «سلطان العروبة»، بالمعنى الإيجابي والمنفتح، «كونكوردات» مع رئيس جمهورية لبنان المنتخب حديثاً وقتذاك، المرحوم فؤاد شهاب، ولقد تم عقد لقائهما هذا في خيمة، نُصِبت على الحدود، نصفها في لبنان ونصفها الآخر في الجمهورية العربية المتحدة، ليس فقط تأكيداً للندية بين أكبر وأصغر قطرين عربيين، إنما لبيان مدى تسامح «العروبة» عندما تكون في أوجها، وقدرتها على احتواء خصوصيات مكوناتها.

ـ ٤ ـ

الوجه الآخر من هذا الاصطفاف الطائفي والمذهبي وتأليب الانتماءات العرقية والقبلية هو الفساد على مختلف أنواعه. فالصراعات الفئوية تتلف قماشة المجتمع وتفقده مرجعيته الخلقية والمجتمعية، وتقدّم المصالح الخاصة على المصلحة العامة، فتضعف بذلك رابطة المواطنة ومفهوم الوطن الواحد. وبدوره يؤدي ذلك إلى فقدان الممارسة الديمقراطية. بهذا السياق، يكون الحديث عن «الديمقراطية الائتلافية»، بمعنى ائتلاف الهويات المجتزأة والمتصارعة للحصول على مكتسبات خاصة ضمن ائتلاف ديمقراطي، ليس إلا محاولات يائسة لضبط إيقاعات صراع الهويات بما يؤمن الحفاظ على الشكل، ومن أجل تحقيق مكتسبات خاصة للفريق الأقوى على حساب الفريق الأضعف في هذا «الائتلاف الديمقراطي». وبشكل عام، فالتوافق في النظم الديمقراطية المؤسَسَة نتيجة تراكم ومورث حضاري وأنساني، تحت مظلة هوية وطنية شاملة ومانعة، لا يحصل إلا بين جهات مختلفة سياسياً في برامجها، وفي حالة مواجهة خطر خارجي يهدد هويتها الوطنية الجامعة، التي لا خلاف مذهبي أو طائفي أو عرقي أو إثني عليها.

ـ ٥ ـ

ولا يطيب لنا نحن العرب التوغل في أحداث التاريخ لاستكشاف مؤثراته فيما أعاق عملية الحفاظ على أمن المواطن العربي. نحن نقرأ التاريخ على نحو سردي ونكتبه على نحو

سردي أيضاً. مثل هذه الممارسة تؤدي الى الاستقالة من التاريخ والجنوح الى الجغرافيا، خاصة إذا كان فيها تعبير لملامح هوياتنا الجزئية. ولكن عندما نفقد الحجة التاريخية لا يشهد لنا الحاضر الجغرافي، وبالتالي نفقد حجة الدفع للمستقبل الذي نسعى إليه. فالصراع ضد القومية العربية من قبل القوى الخارجية هو ليس وليد اليوم، ولا ينحصر بالأحداث المفصلية التي ذكرت (الصراع العربي ـ الإسرائيلي وغزو العراق على سبيل المثال)، إنما يتعدى ذلك ليرتبط بالسياسة الاستعمارية التي كانت تقودها بريطانيا منذ منتصف القرن التاسع عشر، ولعل بداياتها في هذا السياق، كانت حملة إبراهيم باشا على فلسطين وسورية. في هذا الصدد يكتب اللورد بالمرستون رئيس وزراء بريطانيا في سنة ١٨٤٠ الى سفيره في اسطنبول مؤكداً سياسة بريطانيا في تشجيع استيطان اليهود في فلسطين، حيث إن إقامة كيان قومي لهم فيها «سيؤدي الى إيقاف أية محاولات شريرة في المستقبل من قبل محمد علي أو أي من خلفائه» لإقامة كيان موحّد بين مصر وسورية الطبيعية. هكذا خرجنا من سياق التاريخ ولم نعِ مؤثرات الجغرافيا.

الإنسان العربي اليوم، ليس مهدداً فقط بأمنه إنما بوجوده الكياني. هو أمام فاصل زمني ومكاني، إما أن يعيد صياغة تكوينه الاجتماعي ونسق تفكيره السياسي والاقتصادي بما يضمن تأسيس قاسم مشترك أعظم بينه وبين أقرانه، مبني على أساس مواطنة تجمع ولا تفرق، تشترك في الممارسة والهدف، من أجل بناء الدولة التي توفر له فرصاً متكافئة، وحقاً في العمل والإنتاج، كما في إبداء الرأي والمراقبة والمحاسبة. أما البديل فهو العودة الى شتات القبائل والعشائر والطوائف، أو إلى الهجرة والتهجير.

وحدها الرابطة القومية قادرة على درء المخاطر المحيطة بأمن الإنسان العربي. رابطة «العروبة» هذه لها مفهوم ومحتوى إنساني وحضاري غير مقيد بأيديولوجية جامدة، وعلى هذا النحو فهي وحدها القادرة أن تكون الوعاء الصالح للمواطنة الديمقراطية ولمجتمع تسوده العدالة والمساواة، وهي وحدها القادرة على توجيه محصلة القوى المؤثرة فيها لما فيه خير وأمن كافة مكونات المجتمع.

«العروبة» بهذا المعنى هي نقيض الصراعات العرقية والقبلية والإثنية والطائفية والمذهبية. والانتماء إليها والالتزام بمعطياتها يلغي هذه الصراعات المهددة لأمن الإنسان العربي □